

إيفا سالييس تكتب الهامنت، وتتناكس الصورة النمطية للعربي

في معظم أعمالها، المتخيل منها والأكاديمي، تبدو إيفا سالييس عليممة بأحوال العرب والمسلمين، متحسنة لمعاناتهم، في الغرب، كأقلية يقع عليها الكثير من التمييز العنصري، ناهيك عن الفهم المشوه لثقافتهم فتتقف موضحة حيناً، متعاطفة حيناً آخر، وطارحة الحلول في أحيان أخرى وهي في عملها هذا، المتخيل منه على وجه الخصوص، لا تدين ولا تتهم بل تترك لشخصياتها رسم الأدوار ولقارئها استشفاف الحقيقة

وُلدت في استراليا في العام لأم نيوزيلاندية، وأب ألماني، ولد في فلسطين، وهاجر منها إلى استراليا إبان نكبة عاشت سالييس سنتين من عمر طفولتها في ألمانيا، ورجعت إلى استراليا في أوائل السبعينات، واستقرت مع العائلة درست الأدب الانكليزي في الجامعة، كما التحقت ببرنامح لتعليم اللغة العربية، وكان ذلك مقدمة لشغفها باللغة العربية وقد سعت إلى تعميق معرفتها بهذه اللغة، فقامت برحلات منتظمة إلى الدول العربية خصوصاً لبنان واليمن واختارت ألف ليلة وليلة مادة بحثها لنيل شهادة الدكتوراه.

عن دوافعها وراء هذا الاختيار تقول قرأت النص كما هو، جلست وفي يدي النسخة العربية وسألت نفسي ماذا تقول هذه الكلمات؟ حاولت أن أعزل نفسي عن كل ما يدور خارج النص وكان هذا تمريناً رائعاً لأنني استطعت رؤية بعض الأمور التي تناستها النسخ الأوروبية، كفكرة أن المههم في شهرزاد ليس جمالها،

أو إغواءها للملك بل رغبة السرد التي هي أكثر أهمية من رغبة الانتقام والجنس .
كتبت ساليس روايتها الأولى هيام في فترة الدراسة الأكاديمية، وحصلت بفضلها على جائزتين أدبيتين .

عملت في التعليم الجامعي لمدة سنتين، ثم استقالت لتتفرغ للكتابة الإبداعية وقد أصدرت حتى الآن أربع روايات، ودراسة أدبية بعنوان شهرزاد في المرآة تكشف فيها عن رؤى، وأفكار، غفلت عنها الدراسات الأخرى، علاوة على عدد من القصص القصيرة، والقصائد، والمقالات، والدراسات .

تنشط ساليس في الميادين الاجتماعية المتعلقة بحقوق الإنسان، حيث أنشأت جمعية استراليون ضد العنصرية التي تسعى، عن طريق الإعلام والفن، إلى تعريف الرأي العام الاسترالي بقضايا طالبي اللجوء، وكشف معاناتهم، والمعاملة التي يلقونها في معسكرات اللجوء كما قدّمت برنامجاً تلفزيونياً في العام أثار جدلاً واسعاً وكان لها الفضل في تأسيس مسابقة مدرسية في الكتابة الإبداعية حول اللاجئين، صدرت بموجبها أنثولوجيا بعنوان الأحلام المظلمة، وهي عبارة عن قصة كتبها طلاب عن تجارب عرفوها، وتمثلوها لطالبي اللجوء .

«هيام»

«هيام» هي رواية الصدمة النفسية الناجمة عن اصطدام المهاجر بمجتمع تختلف قيمه، وعاداته، وتقاليده وقد حاول البعض توظيف الرواية لنقد الأقلية العربية، والمسلمة، وما كان ذلك ليتأتى دون تجاهل الموضوعات الرئيسية التي جسدها الرواية، أي صمود هيام شخصيتها الأساسية، ونجاحها في تخطي أزماتها النفسية، وتجاوز الأفكار النمطية المسبقة لدى الاستراليين عن العرب والمسلمين، علاوة على ما تفرزه الغربية من إحباط، وإحساس بالمنفى .

تحكي الرواية قصة امرأة عربية من أصول يمنية - أردنية، متزوجة من مهندس فلسطيني يعمل سائقاً للتاكسي، وابتنتهما زينة، التي تخرق قوانين أبويها، وتقيم علاقة جنسية خارج مؤسسة الزواج، الأمر الذي يوصل والدها إلى إحباط يقوده إلى الانتحار، بينما تهيم الأم على وجهها، في سيارة التاكسي، هاربة، ومستكشفة للعمق الأسترالي، في رحلة استكشاف للذات، والمكان، في آن .

تبدأ ساليس روايتها متأثرة بالكثير من الأدباء الاستراليين، الذين رأوا في الطبيعة الاسترالية، الصحراء على وجه الخصوص، أرضاً رتيبة، موحشة، ومعادية لذلك تخلع هيام نفسها من استراليا الأليفة إلى

الأخرى الشاسعة، الرتيبة الأبنية الكئيبة المبعثرة، الخيول الهزيلة الذاوية، والربوع القاحلة، جعلت المكان يبدو فارغاً أكثر من القفر وفي سياق الرحلة تنخرط في تأملات تسترجع من خلالها شخصيات مأزومة، مهمشة، في مجتمع يرفضها، وترفضه مسعود، الذي وُلد في المنفى، لا يعرف وطنه، ولم ير قريته يوماً، كان وطنه مجرد كتاب يُقرأ، وكان مهندساً انحدر إلى سائق لسيارة أجرة، قهرته الحياة، فهرب إلى العزلة، ومنها إلى الخمر، وبعدها إلى الانتحار رجل صنعته الخسارات

ترسم الكاتبة صورة سلبية للفوج الأول من المهاجرين العرب .

الرجال مهمشون النساء يخضن صراع إثبات وجود في المجتمع الجديد يحاولن التعويض عن إحساس بالنقص تجاه الآخر، بالمبالغة في التأنق، والمبالغة في إظهار الكرم والمهارة في صنع الأطعمة. وإذا كانت الرواية قد فاضت بمشاهد تعرض تمرکز الأقلية العربية حول نفسها، ورفضها للآخر، إلا أنها عرضت للآخر، أيضاً، المغلق على ذاته هذا الانغلاق أكثر ما يعذب هيام، التي حاولت اختراق المجتمع الجديد، لكنها قوبلت باستعلاء يتأخم حد العدوانية لم تفهم استراليا، ولا الاستراليين، لم تكن تعرف أن أمورا كثيرة توجد خارج ذاتها، وعالمها، والمفزع أن عليها اكتشاف تلك الأمور بنفسها .

زينة، ابنتها، هي وجهها الآخر، تمردت على تقاليد وقيم والديها، رفضت طعام أمها، وأخذت في ارتداء ما يغيظ من الثياب وفي انتقاد أمها، وطريقة عيشها الكئيبة الخالية من البهجة هي منحازة، بحماسة، إلى الثقافة الأخرى يتجلى هذا الأمر في نقاش مع أبويها حول البومة، التي يرى فيها العرب نذير شؤم، بينما يراها الأستراليون رمزا للحكمة .

في بلادنا عندما كنا نسمع نعيب بومة، أو نرى صورتها، نستعيد بالله .

هذا يفسر أمورا كثيرة يا أبي، انتم تخافون الحكمة فكأنها الموت .

وانتم تبحثون عن المصيبة، وكأنها الحكمة .

تحتل الطبيعة حيزاً كبيراً في الرواية، ولعل الكاتبة أرادت لهيام أن تقهر المكان عن طريق استكشافه لذا، فرضت شخصيتها على المكان، لنراها تستعيد عند هذا الشاطئ، أو فوق تلك التلة ذكرياتها المفرحة، والمؤلمة، حتى يتحقق الافتتان بين المكان والذات، وتتم المصالحة بين المنفى، ومنفاه .

تصبح الرواية، بهذا المعنى، رحلة في الذات الإنسانية، محاولة للبحث عن معنى الحياة، من خلال محاكمة الذات، والآخرين تحاكم هيام ذاتها، وزوجها، وأستراليا أستراليا بلد القساة، الذين لا قيم أخلاقية عندهم،

ومسعود، زوجها، رجل الخسارات، الذي يتركها وحيدة لكنها لم تحاول فهمه، أو مساعدته على تخطي أزمته، ولم تقبل حتى بالاختلاف مع ابنتها.

مدينة اسود البحر

يرى الكثيرون في مدينة اسود البحر لساليس رواية الراهن، بمعنى أنها جاءت كاستجابة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر تحكي الرواية قصة ليان المولودة لأب أسترالي ابيض، وأم فيتنامية مهاجرة نشأت الطفلة في كنف أبويها، وهي مرحة، تحب الحياة، تعلمت من أبيها، الصياد، كل ما تعرفه عن الحياة، وتشعر أن علاقتها بأسود البحر، والمخلوقات الأخرى، أكثر قوة من علاقتها ببني البشر.

في الرواية شخصية أخرى، قد تبدو ثانوية، ولكنها أساسية في صنع الحدث، هي شخصية الأم في فان هي امرأة فيتنامية حملها إلى استراليا قارب من قوارب اللجوء، وقضت عمرها في انفصام نفسي مريب أدى إلى قيام علاقة عدا، ورفض متبادلة بينها وبين ابنتها الوحيدة ليان كانت الأم هي الناجية الوحيدة من قارب يحمل مجموعة من اللاجئين، ولم تستطع تخطي مأساتها تلك، فعاشت متجمدة في خوفها، ترفض الخروج منه أما الابنة فترفض عالم أمها المأساوي، وفي الجامعة تتعلم اللغة العربية، وتسافر إلى اليمن في صنعاء تتعرف على الثقافة العربية، ورغم أنها انتقلت من بيئة ساحلية، طيبة المناخ، إلى بيئة جافة، وحارة، ومسكونة بالغبار، إلا أن الصراع مع منفاها الجديد لم يكن قاسيا حتى الانتقال من العادي إلى المستهجن، أي التحول من فتاة متحررة، ترندي ما تشاء، إلى فتاة ترندي العباءة السوداء، حدث بسرعة، كتلك التي قررت فيها تعلم اللغة العربية، والرحيل إلى بيئة وثقافة جديدتين.

في صنعاء، تقيم علاقات اجتماعية مع الكثير من الناس، تتعرف على مشاكلهم واهتماماتهم لكن أهم ما وقع لها كان اكتشافها للحب، الذي أثمر جنينا ينتمي إلى عالين عالم مسقط الرأس، وعالم الأم المغتربة عن وطنها تماما كما حدث عندما جاءت هي إلى العالم، إن هذه الحقيقة هي التي ستساعدها على اكتشاف ذاتها، وعلى إدراك مأساة أمها، وتعلم كيفية التعامل معها بطريقة ايجابية.

مهجر

تعالج رواية مهجر موضوع العرب الأستراليين، بصرف النظر عن البلدان التي جاءوا منها، مع الحفاظ على هامش كبير للبنانيين، أوسع، وأكبر، الجاليات في أستراليا تتألف الرواية من قصص قصيرة تشكل في مجموعها رواية غير تقليدية، يربطها خيط زمني واحد، وتنقسم إلى ثلاثة أجزاء.

يهتم الجزء الأول بوصف حالة المهاجرين الأوائل إلى أستراليا، الذين أتوا في الستينيات والسبعينيات معظمهم هارب من آتون الحرب الأهلية في لبنان ويختلف المشهد عما عرفناه في رواية «هيام»، فالشخصيات في هذا الجزء صدامية، ثابتة على حقها، لا تتفجع، ولا تستجدي شفقة في القصة الأولى يذهب أربعة أصدقاء في رحلة إلى مدينة في جنوب أستراليا تبهجهم بادئ الأمر الطرق المنظمة، المعبدة، الخالية من الحواجز والقناصة لكن ظهور حيوان الكونغارو يكدر صفاء رحلتهم فهذا الرمز الأسترالي لا يقل خطورة عما ألفوه في بلادهم من قنص وحواجز ومع ذلك، لا يتوتر أحد، وبدلاً من السماح للحيوان المزعج بإفساد رحلتهم، تقوم المرأة بقتله تبدو هذه القصة، على قصرها، وكأنها اعتذار عما جاء في روايتها الأولى هيام من سلبية عاجزة، فالشخصية هنا فاعلة مستعدة للمواجهة، وقادرة على إثبات الوجود، والانتصار في البلد الجديد.

ولعل في إضفاء صفات عدوانية على الكانغارو، في القصة، إحالة إلى الروح العدوانية التي تستقبل بها أستراليا الوافدين إليها ويقدر ما يتعلّق الأمر بالنص، لم تأت رمزية الكانغارو مفتعلة، بل كانت جزءاً طبيعياً من النسيج العام، مجرد حدث بسيط ممكن الوقوع في الحياة اليومية.

في القصة الثانية تحاول امرأة التماهي مع مجتمعها الجديد، فتتخلى عن مظهرها الخارجي الذي يميزها كعربية، وترتدي الثياب على طريقة الأستراليات بنطلون جينز بدل الفستان الأنثوي الأنيق، وتسريحة شعر بسيطة، لا فذلّة فيها، ومكياج خفيف لا كحل فيه ولا طلاء شفاه ثقيل إمعاناً في التماهي تشتري، على عادة الأستراليين، جريدة الصباح وإذ تفتح الجريدة متظاهرة بالقراءة، يلفت نظرها الجالس إلى جانبها بقوله

أنت تقرأين الجريدة بالمقلوب إلا أن طرافة القصة تكمن في إجابتها الجريئة الواثقة نظرت إليه للحظة ثم مالت برأسها إلى الوراء معتدلة في جلستها هازة جريدتها بثبات أنت أقرأ جريدتك بالطريقة التي تناسبك وأن أقرأ جريدتي بالطريقة التي تناسبني.

في قصة الغزال تستخدم الكاتبة الحكاية الشعبية التي تدور حول الأمير المسحور والجنية التي تقتص من خصومها بإنزال عقوبات قاسية عليهم وربما التي كان والدها يشبهها بالغزال، تتمرد عندما تكبر، على هذه التسمية لما تعنيه في التخيل الشعبي من صفات الدعة، والطاعة، والخنوع، وتعيش في لاوعيتها غزاة أخرى هي بطلة الأسطورة التي تتغلب فيها على الأسد بدهائها، وسرعتها في الجري، والتي تقتص من أكلوا لحمها بجلب البلاء لهم تغرم ربما بغزاة الأسطورة، وبما فيها من تفوق على السطوة البطيرية التي تقيد، وتكبت، وتعيق الحرية وتقرير المصير

يلحق القسم الثاني من الرواية المهاجرين بعد استقرارهم، فيلقي الضوء على المصاعب التي نشأت بعد ولادة الجيل الثاني في المهجر ففي حين كان الصراع في الجزء الأول بين القادم ومحيطه، أمسى الآن صراع البيت الواحد صراع أجيال؟ ربما وقد يكون أيضا صراع ثقافات وفي هذا الصدد سنعرض لقصة واحدة بعنوان لا بتسام أربعة أبناء.

هناك عائلة تتألف من أربعة صبيان و بنت، تمثل الأم الركن الأساسي فيها يبدأ الأمر منذ ولادة الأبناء، فقد أصرت أن تبدأ أسماء الأولاد كلهم بحرف السين حتى عندما يكبر الأولاد يستطيع الواحد منهم أن يوقع نيابة عن الآخر، كما يجب أن يفعل الإخوة المحبون، وإذا، لا سمح الله، ارتكب احدهم جنحة ما، سيصعب أمر اكتشاف الفاعل الحقيقي

تشتغل الأم على راب الصدع الذي أحدثه الفارق الثقافي بين جيلي المهجر فالأبناء الذين تربوا في أحضان الثقافة الجديدة لا يقفون منها موقفا عدائيا رافضا كما هي الحال مع الآباء وابتسام إذ يفاجئها المد الذي جرف أبناءها تصارع كي تتغلب عليه بنكرانه كأنما هي في إنكارها له تنفي حدوثه فهي تكذب على صديقاتها بإبقاء طلاق ابنها البكر سرا، وتنكر زواج ابنها الثاني من استرالية، وقوه حقيقة ابنها اللوطي.

ابتسام الحائرة بين إرضاء أفراد جاليتها، وكف ألسنتهم عن العبث بسيرة أسرتها، وبين سعادة أبنائها، تنحاز في نهاية الأمر إلى صف الأبناء.

يبحث القسم الثالث من الرواية في الراهن، يتعرض لموجات الهجرة واللجوء الأخيرة التي حصلت في القرن الحادي والعشرين، في محاولة لكشف الأسباب التي أدت بالعربي، العراقي، والفلسطيني على وجه الخصوص إلى هذا اللجوء المهين، والخوف بالمخاطر وتدور معظم الأحداث في بلدان المصدر، أي التي جاء منها المهاجرون الجدد إلى أستراليا.

«حريق حريق»

رغم أن رواية «حريق حريق» تدور كسابقاتها في فلك النفي والاعتراب، إلا أن المنفى لا يتمثل فيها كخيار قسري، بل يبدو خياراً أيديولوجياً، ومن أجل تحقيق غاية نبيلة تحكي الرواية قصة عائلة مؤلفة من أبوين، وسبعة أبناء يتمتعون بمواهب عالية موسيقي، لغة، رياضيات وغيرها لحماية هذه المواهب من الإفساد تقرر الأم إخراج العائلة من مجتمع الحضرة يفقد الأب - وهو نابغة في الإبداع الموسيقي - مقطورة تحمل الأم والأبناء في قلب الريف بلا هدف محدد، حتى يصل الجميع إلى بناء يتخذونه مسكناً لهم.

تخطط الأم لتربية أبنائها السبعة في بيئة مثالية يحكمها الإبداع، والاكتفاء الذاتي، تربيتهم بين الموسيقى، وزراعة حبوب الصويا، وتربية الماعز، واستخدام الأدوية الهندية، وتتولى مسؤولية تعليمهم وتنقيفهم بنفسها وبذا يتأخر اتصالهم بالعالم الخارجي حتى سن المراهقة، ولكن الأبناء، حتى وهم في عزلتهم هذه، كانوا يدركون بالغريزة أن ما تقوم به أمهم خطأ، وفي النهاية، يحارب كل منهم، على طريقته، للتحرر من تأثير الأم ونفوذها الضاغط.

يقوم مناخ الرواية في أجواء قوطية، لا تستلهم غرائبية عالم ديزني، بل تسير على خطى عالم الأخوين غريم في الحكايات الشعبية، التي تفضح ما في الطبيعة البشرية من عممة وقد لفتت الكاتبة نفسها الانتباه إلى هذا الأمر في المقطع الأخير من الرواية إنها الأسطورة التي يسكنها أناس يمشون على خيط دقيق بين الإنساني، والحيواني.

يجري زمن السرد في ستينات القرن الماضي، الذي هو زمن المثالية الهيبة مثالية كتلك التي تتبناها الأم يتطلب تحقيقها قسوة لا ترحم، لذلك يجري تصويرها كوحش تتجسد فيه صورة الأم الكبرى، التي تصر على تطبيق برنامج يخدم مثالياتها، عنيفة، وقاسية.

تطرح الرواية السؤال القائل هل يمكن حياة البرية أن تصنع الإنسان المتفوق السوبرمان أم أن الأمر مجرد علاج لانحرافاتنا النفسية؟

الأسود

(قصة قصيرة لإيڤا سالييس)

كان ذاك الصباح صباح شؤم على أحمد ، لقد أحيط بثلاثة جنود قساة تمنى لو انه كذب وأعطاهم عنوانا مغلوطاً ، سيتمكن آنذاك من الإفلات ، عند انكشاف الأمر ، عندما تفتح إحدى الأمهات الباب وتنكره طرق الجندي القصير الباب وهو يجذبه بعنف من أذنه ، وعندما فتحت أمه الطاقة الصغيرة ، سأل عن علي .

ماذا تريد من علي ؟ سألت أم احمد بلهجة غاضبة جافة عرف أحمد أنها ستكون هي الراححة لو أن الأمر ذهب إلى أبعد .

كان يعلم أخاه رمي الحجارة .

لا هو لم يفعل .

بل فعل هذا التافه الصغير قال ذلك ، وقرص الجندي أذن احمد قاتلا اذهب نريد عليا أزاح الجندي القصير صمام الأمان في بندقيته من طراز أم فور آي ون ورفس الباب فانفتح عندما وجدوا علياً حطموا طاولة الطعام وغادروا محدثين جلبه ماذا بإمكانهم أن يفعلوا؟ علي كان ابن خمس سنوات فقط ، وعيناه تشعان بشرر نار سوداء والى جانبه الكثير من الأوراق الراححة

منع احمد من الخروج من البيت كان يعرف أن عليا ليس المسؤول عما حدث له ، ولكنه ، وقد ملأه الامتعاض ، راح يلوم أخاه ويشاكسه نظر علي إليه من خلف رموشه الطويلة وتبعه منتظراً منه أن يفعل شيئاً ممتعاً وهذا ما زاد الأمر تعقيداً .

عند المساء كان أحمد قد غفر لعلي فعلته أخذ أخاه بيده وطلعا إلى السطح وشاهدا معا آثار الرصاص أصغيا إلى أصوات البنادق الأوتوماتيكية التي تطلقها طائرات الهليكوبتر كان هنالك توهج غريب ينبعث من خلفهما ويتألق في السماء المظلمة كانت سلسلة التلال ترخي بظلمها على الأرض ، وأشجار الزيتون تقبع شاحبة أشار أحمد إلى البعيد .

- ياه ، هناك ، بعيداً ، خلف التلال تقع مدينة الأسود اكتسى وجه علي بفيض من النور إلى درجة جعلت أحمد يؤمن أيمانا مطلقاً وفورياً بمدينة الأسود نعم ، مدينة الأسود فيها منتشرة في كل مكان وهي لا تأكل البشر .

زفر علي وقال دعنا نذهب إلى هناك .

- ن ن نعم ربما كلا لو كنت أكبر لذهبتنا ، ولكنك مجرد طفل .

تنهد أحمد تنهيدة من خاب أمله خيبة صغيرة كان يتمنى أن يذهب ليهرب فقط هي رحلة بدون شك ، ولكنها رحلة تستحق العناء قد يذهب لوحده .

حبس علي أنفاسه فيما هو ينزل من فوق الحافة ، وركز نظره المتوقد الحاد على أحمد امتزجت أنفاسه بسيل من الكلام كان يضيع في خضم الضجيج المنبعث من بنادق اوتوماتيكية تطلقها طائرة هليكوبتر تندفع مجلجلة من خلف التلال مسلطة أضواءها حول البيوت تجاهل الولدان الأمر ، وظلا واقفين فوق السطح ، وجها لوجه .

أنت ، صرخ أحمد ، أنت قد تتعب وسأضطر أن أحملك ، وعندها سأتعب أنا ، وعندها لن نستطيع الوصول إلى هناك هي طريق طويلة طويلة قد تموت .
سأجلب طعاما وماء لي ولك .

وراح احمد يتصور ما سيكون وقفة قصيرة تعيد النشاط ، استراحة تحت شجرة ، زعتر ، قمر ، وقمرالدين نحن بحاجة إلى قمر الدين .

أحنى علي رأسه انحناءة من يقول أن تصغي معناه أنك موافق وكانت فترة صمت .
ولكن بابا سيقتلنا يضربنا بقسوة ، قال أحمد فجأة .

علينا أن نسير على تلك الطريق ، ولوّح باتجاه الحقول الواقعة عند أقدام التلال والتي يمنع عليهم دخولها عندما فجر صبري جراح نفسه أمطرت قطع من جسده فوق القرية كان علي ، الذي يلاحظ الأشياء ، دائما يقول إن كل علامة صدأ هي تآكل سببته بقع من دم صبري الذي تناثر في المكان ماما ظلت تولول وتبكي كل الوقت .

ولكن الأسود لا تأكل البشر تساءل علي إنها مدينة آمنة تماماً أليس كذلك ؟

أوووه ، آمنة تماماً هم بالتأكيد لا يمانعون ذهابنا إلى هناك ، المسألة فقط في الوصول

تنهد علي وقال حالماً أخبرني أكثر عن مدينة الأسود

تعيش الأسود في قصور من رخام وحجارة بلون الذهب توجد أشجار ، وينابيع وأسود صغيرة تلعب فوق الحشائش الخضراء اضطلع الولدان فوق السطح يحدقان بالنجوم ، الليلة اشد ظلاماً من المعتاد في مدينة الأسود توجد حراذين في كل مكان ويوجد كرز .

- كرز؟

أبوه ، كرز على الشجر ، في كل مكان الأسود لا تأكل الكرز يتركوهم للزوّار حذفت النون مراعاة للغة

التي يتكلم فيها الطفل .

جلس علي ، وحدث في وجه أخيه .

كيف عرفت عنها كل هذا ؟ من أخبرك يا أحمد ؟ من يا أحمد ؟

أنا ذهبت إلى هناك لذلك أعرف الطريق قال أحمد مقاطعاً لماذا تسأل أسئلة سخيفة ؟

وكان صمت .

حصلت علي ثمار الكرز قال أحمد فجأة ، ووضع حصة صغيرة في يد علي .

سندهب معاً قال علي بصوت فيه تصميم وعزم عند الساعة الخامسة صباحاً نمشي نقضي ساعة

هناك ونعود .

في الساعة الثالثة احترقت قذيفة ، أطلقت من طائرة هليكوبتر ، البيت ، وأحدثت فيه فجوة ، ودمرت

الحائط الخلفي المقابل للتلة بصورة الجد ، وحطمت ما تبقى من طاولة الطعام التي كسرها الجنود من قبل

بنبرة فظة متوترة أيقظ الأبوان علياً وأحمد ولولت أمهما بغضب لفا ببطانية وحملها معاً ، وقد تدلى رأسهما

الأشعثان متراقصين شيئاً فشيئاً هرب النعاس من أعينهما هرع الجميع إلى الطبقة السفلية حيث تجمع بعض

الجيران كانت ذراع احد الرجال تنزف دماً لقد بقي البيت صامداً إلا أن بيت آل حمدي الذي يقع عند

المنحدر ، أعلى منهم بقليل إلى الشمال ، لم يحالفه الحظ ، وبهدير ، شبهه أحمد بصوت شلال ، تداعى البيت

المقصوف ، وتدرج قطعاً إلى المنحدر هرع الكبار كلهم لإنقاذ الحيوانات ، وانقاذ ما يمكن إنقاذه ، وبقيت

العمة نهاد في الطابق السفلي ترعي الأولاد السبعة الصغار .

وعندما حاول أحمد أن يسألها شيئاً صفعته بأقصى قوة لا ما في طلعة لبره صقع أحمد فهي حتى

لم تنتظر لتسمع ما سيقول ، رغم انه كان ينوي أن يسأل إذا كان بإمكانه الخروج قطب حاجبيه وتحسس

خده المصفوع سقط علي نائماً ملتفاً على ذاته كجرو صغير جلس أحمد إلى جانبه وجهه ليعلم ما يجري

في الطابق الأعلى .

أحمد يغفو حائراً في أمر امرأة تصرخ ، وتبكي .

كان الظلام لا يزال مخيماً عندما استفاق علي وخزة من علي في ذراعه .

يللا ، لنذهب .

تطلع أحمد حوله كان الأطفال نياماً والعمة نهاد قد ذهبت وقف أخوه الصغير أمامه كان يتدلى حول

رقبته حبل رُبطت في طرفيه قارورتان ، كانتا قبلاً وعاء لعصير البرتقال ، وقد امتلأتا حتى المنتصف بالماء وكان

يحمل فوق ظهره حقيبة صغيرة منتفخة كانت عينا علي تفيضان جبوراً وعزماً ولم تؤثر فيه اعتراضات أحمد هو يعرف الطريق هما يستطيعان الذهاب وإن حرصا وانتبهتا يستطيعان تجنب الخطر تعقب انعكاس خيال علي الصغير وهو يخطو بثبات خارج القبو قطعاً الدرجات الموصلة إلى الجراج، تطلعا حولهما وقد بدا كل شيء طبيعياً، ما عدا بيت آل حمدي المنهار، والفجوات التي أحدثتها الانفجار في بيتهما كان الناس يتحلقون في تجمعات متفرقة هنا وهناك، وكان أحمد يدرك انه عليهما الإسراع كي لا يراهما احد لقد امتلأ فجأة بالحماسة

من هنا قال أحمد، وامسك بيد علي وأحني ظهره محاذياً البيوت، مختبئاً بظلها سارا باتجاه الحقول الخصبية العذراء وعبرا بيارات الزيتون الكثيفة المنسية .

ما دمت قد جئت إلى هنا من قبل فأنت إذاً القائد همس علي عندما وصلا إلى المزارع المهملة المشاع أنا سأفعل مثلك تماماً سأضع رجلي حيث تضع أنت رجلك بالتمام وهكذا لا ندوس على الألغام .

هز أحمد رأسه حاملاً، ودون أدنى تردد مشى في حقل الألغام كانت الشمس مشرقة من خلفهما ولو أن أحدا تطلع في تلك اللحظة إلى تلك الناحية، لكان كشف بكل سهولة ذلك العبور المستغرب اتبع أحمد طريقاً وعرة متعرجة فكأنه كان يفكر ويوائم وبعدها يختار الخطوة المناسبة أتكون خطوة صغيرة أم كبيرة؟ واسعة مستقيمة إلى الشمال أم إلى اليمين؟

كان في بعض الأحيان يتأني كأنما هو يتذكر ثم يخطو واثقاً مقتنعاً أنه حقيقة يعرف الطريق بدت خطوات علي الأولى قلقلة ولكنه ما لبث بسرعة أن بدأ يتحرك باطمئنان واثقا من كل خطوة يخطوها لم تساور علي شكوك من أي نوع لقد وصلا الجانب الآخر نقطة البداية لعبور التلة ابتهج أحمد بنجاحه وراح يغذ الخطى فرحاً متسلقاً التلة لناحية الغرب .

- أخبرني كيف هي الحال في مدينة الأسود؟

- هناك، تسمع موسيقى جميلة تنبعث من ساحات لا ترى الحدائق العامة تمتلئ بكل أنواع الطيور طيور أليفة جداً، لأن ما من احد اعتدى عليها أبداً قد يقف بلبل على كتفك، يطير، ويعود ليغني لك والأسود تصخب في كل مكان، تزرأ في المنعطفات هنا وهناك

- أنا رأيت أسداً حجرياً

- توجد أيضاً أسود حجيرية في مدينة الأسود، ولكنها أفضل من أي أسود أخرى في العالم تجدها على

البوابات وفي الحدائق وهي تبدو وكأنها حقيقية سوى أنها رمادية.

-ولكنك قلت إن الحجارة ذهبية .

- صح ، هي ذهبية ولكن ليس ذلك النوع الذي تصنع منه الأسود الرخام لا يمكن أن يكون ذهبياً يا غبي .

ولكن قصور الرخام .

- هي رخام من الداخل .

مرّا قرب عظام ابيّضت لابن آوى ، كانت مطروحة بين العشب النامي ، في أعلى التلة حيث تتلاعب الريح بالأعشاب الجافة ويسمع لها أنين لم تكن مدينة الأسود على مرأى منهما ، فقد كانت هذه أوّل تلة يصلان إليها على مرمى نظرهما كانت تمتد الوديان الصخرية التي يغطيها ضباب الصباح ، ومن بعدها مزيد من التلال توجه أحمد شمالاً كي يواكب انعطافة التلة بدل أن يغوص في عمق الوادي .

عد أحمد ثلاثة تلال ، وكان لا يزال أمامهما أن يعبرا تلة أخرى خطأ علي خطوات عنيدة ، وأحنى رأسه استدار أحمد وأخذ حمالة قارورتي الماء عن عنق علي ، ووضعها فوق عنقه لم يهتم علي للأمر ، واستمر متابعاً طريقه ببطء صاعداً التلة الصخرية من تحتها كانت قطعان من النعاج والماعز تختلط بالصخور ولا أثر للرعيان لا بد أنهم اختبأوا في مكان ظليل يحتمون به من أشعة الشمس بعيداً ، في أسفل التلة كانت تنتشر مجموعات من الجنود يبحثون عن شيء ما تمنى أحمد لو يكون هو وعلي مخلوقات غير مرئية ، مخفية بين الصخور ، وتعرجات التلة المكشوفة للعيان ضربت الشمس رأسيهما العارين ولاحظ أحمد فيما هو يتطلع إلى الوراء ، العرق يلعب فوق رقبة علي زاد من سرعته ، وأخذ الحقيبة من فوق ظهر علي ثم عاود سيره كالمعتاد .

قف فوق التلة قال :

توقف علي في الحال ، وتأرجح قليلاً ، وأخذت رجلاه في الاهتزاز فجأة جلس وبدأ يبكي رفعه أحمد وحاول أن يقوّي من عزيمته ولكنه هو نفسه كان تعباً .

على أية حال إنه وقت الغداء قال أحمد وجلس إلى جانبه لم يستطع أن يتكهن الوقت الذي آل إليه النهار فالشمس ثابتة فوقهما منذ مدة طويلة رفع علي نظره إليه ، وابتسم فيما كانت الدموع تنحدر على خديه .

كُل شيئاً من قمر الدين همس وراح يتحسس الحقيبة فوق ظهره .

في الحقيبة كانت رقعة من قمر الدين ، رغيفان من الخبز ، قطعة كبيرة من الجبنة ، وطابة حمراء

ما هذه ؟ سأل أحمد ممسكاً الطابة .

- هدية لأطفال الأسود ليلعبوا بها فوق العشب لا يصح أن نزورهم من غير أن نجلب لهم هدية
- والله معك حق مزق أحمد بعضاً من قمر الدين، وأعطى بقية اللفة إلى عليّ مزق علي قمر الدين بصمت
ثم فجأة هدر وفهقه وبتش قطعة دفعها إلى حلقه مبقباً وصنع أحمد الشيء ذاته حتى انتهيا منبطحين على
بطنيهما، يعملان نهشاً بضحيتهما رقعة قمر الدين

- وهل تتكلم الأسود؟

لا، لا لزوم لكلامها هي فقط تنظر إليك بذكاء وأنت تستطيع أن تربت عليها وربت أحمد ظهر علي
ربناط طويلة كما يفعل أسد، تقلصت لها عضلات علي .
آه فهمت قال ودلت نبرة صوته وتعابيره على انه فعلاً فهم .

أحس أحمد نفسه مُهَمَّلاً فأخذ قارورتي الماء وبدأ يفرغ الماء من واحدة إلى أخرى ثم أضطجع الأخوان
أرضاً وحدقا، لبرهة في السماء .

بدأت الشمس تتحرك ثانية فنهض علي هيا لن نصل إذا لم نواصل السير .

عاودا سيرهما كالمعتاد، وسرح كل منهما في أفكاره الخاصة حرضهما الصمت وحرارة الجو في تلك
الظهيرة على الشرب عدة مرات، فبدأ الماء ينقص شيئاً فشيئاً باستطاعة احمد أن يتابع الرحلة إذا كان علي
يستطيع ذلك فقط لو أن عليا يتوقف عن طرح الأسئلة بدأ يفكر بالمتاعب التي سيواجهها بأخذه علي إلى
الحقول الخرمة، كم من المتاعب سيواجهه في اصطحاب عليّ إلى قمة التلة كم سيواجهه من المتاعب باصطحاب
عليّ إلى سلسلة التلال، التي لا تنتهي، في البحث عن المدينة الموعودة .

ضربته موجة من الفزع ولكنه كتمها مدن الأسود يجب أن تكون شيئاً حقيقياً لقد قرأ في عيني علي
أنها أكثر المدن حقيقة موعودة وأشدّها اعتباراً حدق في حذاء علي المغبر، وحاول أن يبعد عن رأسه فكرة
أي الاتجاهين يسلك المدينة أو البيت ركز فقط على خطوات علي الرتيبة التي كانت تضرب مصعدة في
مرتفع يرخي فوقهما ظلاً عميقاً .

كانت هنالك دبابة مهجورة مطروحة في ذلك الظل وكان مدفعها موضوعاً بين الأعشاب والصخور دون
أن يصب إلى شيء محدد شماً رائحة شيء ميت تنبعث عن قرب، امسك عليّ أنفه وحث خطاه صعوداً
وكان احمد يتبعه .

عندما وصلا إلى قمة التلة الأخيرة، كان المساء قد داهمهما لقد زحفا على أربع حتى وصلا إلى القمة
همست الريح في آذنيهما، محدثة خشخشة ناعمة نتيجة احتكاك الصخور الذهبية بأكوام العشب ولاعبت

شعرهما الخشن المبلبل بالعرق ثم أخذت الأرض بالانحدار في منزلق أجرد امتد وامتد حتى انتهى إلى سهل واسع بعيد المدى وقف الولدان متجمدين صامتين يحدقان باتجاه المدينة المتألثة كان المحيط الممتد حتى الأفق صفحة ذهبية ، وكانت منائر المدينة وقبابها وأبراجها تزهر لامعة بظلال من الذهبي والأزرق الداكن الزجاج البعيد والمسطحات العاكسة كالمرايا بدت وكأنها رجرجات ضوء سائل حتى أشجار المنتزهات البعيدة البرتقالية كانت على مرمى البصر .

كم كان الهواء نقياً .

تنهيدة عميقة خرجت من صدر علي كأنما يود أن يُدخل أكبر قدر ممكن من الهواء إلى رئتيه ها هي ، قال أحمد ، وخفق قلبه في صدره بعنف ها هي هناك ، أكثر جمالاً مما تصور ، أعظم وأكبر لقد علم ذلك منذ البداية شعر بيد علي في يده تجره إلى الوراء .
علينا أن نذهب ، قال علي ، لقد تأخرنا ، لا نستطيع أن نكمل ، سيقلق علينا الأهل .

نجمة حبيب
استراليا